الفنان والمنظّر " محمود صبري " ..

ليس بذريعة الاحتفاء ولكن بضرورة إعادة القراءة والفهم

لبلوغه الثمانين من العمر ، تمّ الاحتفاء بالفنان محمود صبري (١٩٢٧) من قبل العديد من النقاد والفنانين والتجمعات الثقافية العراقية . عدّ هذا الاحتفاء مناسبة لاستذكار منجزه الفني والإشادة –وان كانت على نحو غامض –بأطروحته النظرية "واقعية الكم -١٩٧١".

لم يكن الاحتفاء الا مناسبة عابرة ، تمت أحاطتها بتبجيل الدور الإبداعي للمحتفى به ، بعد افتراض عاجل ، انه بات في عداد الماضي . واستذكارات سابقة صاحب بعضهم الفنان في القليل من لحظاتها . وقدر من الشكوى جرّاء الزعم بعدم الانتباهة المتواصلة للمبدع ومنجزه.

إنها احد أدوارنا ، تلك التي نستبدل فيها طريقة التفكير بالأسئلة التي تثيرها كل تجربة جديدة ، إبداعية كانت أم معرفية ،إلى لازمة أخلاقية ندعوها بالوفاء. هل أتحدث عن قصص الجحود التي يثيرها تاريخ الفن عن الفنانين ؟. أجد أن الموقف يتعلق بالفهم وليس بالنكران.

سعد القصاب
فنان وناقد

نعلم أن الفنان " محمود صبري " يحتفظ بأهمية راسخة في الريادة الفنية في العراق ، إلى جانب الفنانين ، فائق حسن ، جواد سليم ، شاكر حسن آل سعيد . هؤلاء الذين منحوا الفن التشكيلي العراقي خبرة قائمة على الاحترافية والتجريب ودوافع التجديد ،متجاوزين صفة الهواية والحضور المحدود الذي طبع هذا الفن قبل نهايات القرن المنصرم . كما تأكدت مكانته ، بدءا ، باللوحات التي اتخذت الموضوعة الاجتماعية والسياسية وفعل الالتزام في الفن منحى لها . فكانت لوحات " الشهيد ١٩٥٠ " ، " ثورة الجزائر ١٩٥٦" من الأعمال الفنية المهمة التي وثقت لهكذا اتجاه في الفن العراقي.

وتاليا في اكتشافه نظرية " واقعية الكم " التي عرّف بها في معرضه الشخصي الأول في " براغ " عام ١٩٧١، وهي المدينة التي أقام فيها منذ العام ١٩٦٤، وتقديمها للوسط الثقافي في "بغداد "عام ,١٩٧٣

لم أشاهد معرضه ذاك الذي أقامه في المتحف الوطني للفن الحديث (كولبنكيان)، ولم أشهد السجالات التي دارت حوله. كان عمري لا يتجاوز العشرة أعوام . فأنا من جيل لاحق ، لم أدرك عديد الأحداث الثقافية والفنية التي غمرت تلك المرحلة ، إلا من خلال المقالات وأدلة الفنانين السابقة.

وهكذا كان الأمر مع تجربة الفنان " محمود صبري " . الذي أثار انتباهي تجاهها ، إطلاعي على القليل من دراسات جادة عنه في نهاية السبعينيات نشرت في مجلة " آفاق عربية " ، بشان " واقعية الكم " وتطبيقات كشوفاتها في لوحاته.

وبأثر تخصصي في الفن التشكيلي بعد ذلك ، ومتابعتي للعديد من اتجاهاته وتاريخها والعراقية منها خاصة . كانت الأحكام غير المدربة على تقييم نظريته الفنية تدفعني دائما لمعاودة الإطلاع والتفكير فيها ثانية.

حسنا ، ما الذي تم استنتاجه من ذلك : كانت نظريته مشيدة على معرفة صلبة ومنضبطة ، مقابل خبراتنا الجمالية والفكرية التي لم تستطع تفحصها كون الكثير من عدتها تم استعارته من القاموس الأدبي وأوصاف البلاغة . خبرة أطرتها مراجعات الصحافة وسجالات القاعدة الثقافية الضيقة الحدود . ما جعلها غير قادرة على أن تكون متطلبة وكثيرة الفضول تجاه أية أسئلة غير متوقعة في نتائجها.

كما كان هنالك الكثير من مثقفي اليسار ، غير الراغبين في الانتباه إليها بدواعي الشعور بخيبة ظن إيديولوجية ، حينما اختفت الموضوعة الثورية من لوحات محمود صبري ، و استبدال أشكال الكادحين والثوار في مشاهد لوحاته إلى صياغات تجريدية هندسية !!. فيما الفنانون لا يمكن لهم أن يصدقوا بتكون النتيجة الفنية وعنوانها مستمدة من معادلات كيميائية.

عدا ذلك . أن "محمود صبري " قد غادر حضوره في المشهد التشكيلي العراقي لمدة تجاوزت الأربعة عقود ،ما اجل تحديد موقعه في الوسط التشكيلي لاحقا.

أسباب هي بمثابة اعتراضات ، جميعها ، كرّست فهما شديد الالتباس . ما زال حتى اللحظة يؤثر بمطلقاته عند قراءة تجربة احتفظت بمعرفة ونتاج شديدي الفرادة أسس لهما الفنان الرائد " محمود صبري ".

انه كأي اكتشاف معرفي وجمالي ومتألق ، يبدأ ليعمل خارج التوقعات.

ما يشغلني في تجربة الفنان " صبري " ليس تلك الأوضاع والتبريرات، بل ما طرحته نظرية " واقعية الكم " ، والتي أجدها تماثل إحدى القضايا الكبرى في الفن. حين افترضت أن المنجز الجمالي منذ الإغريق حتى " موندريان " ، هو فن بات في عداد الماضي . انه خلاصة حضارة زراعية، بخلاف عصرنا الذي يشهد تحولات مغايرة أكثر علمية وتجريبية، فهو عصر الذرّة والتفاعلات الجارية في المختبرات . والتقانة التي أصبحت ترفدنا باحتياجاتنا المادية والجمالية والروحية على حد سواء . فالعالم لم يعد مشهدا خلويا انه كيان عمليات . والمرئي هو ليس ما نشاهده فقط بل ما لم نشاهده أيضا . لابد أذن من فن لا يعاين الثابت بوصفه سكنا وإنما متحولا باطراد.

إن نظريته تقوم على مبدأ علمي جاءت به الفيزياء الحديثة ، في بدايات القرن الماضي ، أكد أن العالم ليس كيانا جامدا وموجودات ساكنة بل وجود في حالة تحول وصيرورة ، والشاهد هو تلك العلاقة بين الكتلة والطاقة داخل المادة وتحولاتها في الطبيعة.

وبواقع معرفة كهذه ، برر الفنان رؤيته تجاه الأساليب الطليعية في الفن ، وخاصة ما جاءت به التجريدية والاتجاهات اللاشكلية ، في كونها قد وصلت إلى طريق مسدود ، ولم تعد قادرة على التعبير عن روح العصر الذي أصبح العلم والتقانة هما المهيمنان فيه.

يقول " محمود صبري " في أحد لقاءاته (.. تبدو " واقعية الكم " غريبة ومثيرة . فهي من جهة تتجاوز وتلغي مفهوم الواقعية التقليدية ، إذ أنها لا تقف عند المستوى المنظور بالعين المجردة من الطبيعة (كما تفعل الواقعية التقليدية) بل أنها تتجاوزه إلى مستوى أعمق فيها ، وهو مستوى العمليات الذرية . إن هذا المستوى كما هو معلوم لم يكتشف إلا مع تطور العلم والتكنلوجيا في عصرنا . لذا فان واقعية الكم تسد بهذه حاجة جديدة معاصرة : الحاجة إلى فن يمثل روحية الإنسان المعاصر الذي يخترق حاجز عالم المظاهر ويقف على عتبة عالم جديد غريب لم يعرف عنه إنسان الماضي شيئا). من هنا كان يرغب بوضع أشبه ما يكون بأبجدية للرسم . تتخذ الأطوال الموجية الكائنة في العناصر الذرية مفرداتها اللونية وموضوعها. لاشك في أن نظرية " محمود صبري " قد تعرضت إلى سوء فهم ونقد وسجال ، بأسباب مقولة تتبنى التعارض الوظيفي والمعرفي في مجال العلم والفن . بأسباب أن الأخير تجربة تعتمد الخبرة الذاتية بمكوناتها الانفعالية والتعبيرية وصفة الفرادة فيها ، فيما العلم ، معرفة قائمة على الخبرة الموضوعية والملاحظة المختبرية الصادقة للتجربة ومقدماتها. بذلك هي تبقى قراءة تعاود اختزال النظرية إلى حالة اختلاف قائمة على أفكار مسبقة لطبيعة العلم والفن على حد سواء، وإرجاء تميزها الثقافي وجدليته لجهة بداهات وتصورات فكرية تقليدية.

إن نظرية " واقعية الكم " في حاجة حقّة لقراءة جديدة ، وعبر الاستعانة بدليل أكثر معاصرة يحتفظ بفصول من الجماليات والعلم ويشير إلى معرفة مغايرة عنها، ليس بذريعة استذكارنا التاريخي عنها ، بل بضرورة تفحّص جدليتها والنتائج غير المتوقعة فيها، والتي أثبتت الطروحات الإبداعية والفكرية المعاصرة صوابها . وانطلاقا من الفن ذاته الذي بدأ ومنذ ما يقارب النصف قرن ، باستلهام التجارب والكشوفات العلمية والتقنية في منجزه .

كما في تجارب الفن المعاصر وأساليب ما بعد الحداثة ، وهي اتجاهات أصبحت مهيمنة حاليا في الفن العالمي . عدا ذلك التصور السديد الكائن فيها عند النظر إلى الفن بوصفه معرفة ، وتجاوز الاكتفاء بمعاينته من خلال الذائقة . إنها طروحات مازالت الأكثر تداولا وتضمينا في النظريات المعاصرة في الفن.يبقى احد امتيازات الفن العراقي ، انه قدم منظرا فذا بمستوى الفنان الرائد " محمود صبري " ونظريته المتألقة التي أطلق عليها تسمية " واقعية الكم ".

شهادات عن محمود صبري

اود ان اتحدث عن جانبين فى شخصية محمود صبر جانب عن علاقة محمود صبري بالحزب او بالاحرى بسلام عادل . وجانب علاقتي انا الشخصية بمحمود صبري وبداية دوره بالحركة الوطنية.

فى الفترة ما قبل الخمسينيات كان الفن التشكيلي فى العراق دون المستوى المطلوب في الجبهة الثقافية ولم ينهض الفنان التشكيلي بعد الى مسؤوليته المطلوبة فى المعركة السياسية.

عام ١٩٥١ اقام مجموعة من الفنانين العراقيين وبضمنهم محمود صبري معرضا تشكيليا فى قاعة معرض الازياء ببغداد. وانا كنت ضمن الزائرين لهذا المعرض وهناك اتيحت لى فرصة التعرف بشخص محمود صبري ... فى المعرض ولأول مرة فى تاريخ العراق يشاهد الانسان البسيط انعكاساً لواقعه الاجتماعي والسياسي، خاصة بعد الصمت الذي خيم على الحركة الوطنية انذاك.

المعرض لم يكن حدثا فنيا فقط ، بل كان ايضا حدثا سياسيا انعكس فيه تلهف وحماس الشعب العراقي الى الفن الثوري الذي كان محرما من قبل الطبقة الحاكمة انذاك .

المعرض كان متنفساً للعديد من الناس بمختلف انتماءاتهم السياسية ، انا شخصيا حضرت المعرض اربع مرات ، ليس فقط لاضافة شيء الى حصيلة معلوماتي الفنية فقط ، بل كانت مناسبة جيدة للالتقاء بزوار المعرض وايصال جريدة الحزب اليهم وجذبهم اكثر الى الحركة الوطنية.

محمود صبري لم يتحدث فى رسوماتة عن الوضع الداخلي ومعاناة الشعب العراقى ومآسيه فى ١٩٦٣ فقط بل وكرس اهتمامه بعدد من رسوماته عن معاناة الشعوب فى الوطن العربي ، فقد ابدع فى تجسيد نضال الشعب الجزائري فى لوحة تاريخية تحت اسم (معركة الجزائر) عام ١٩٥٦ وهى موجودة الآن فى المتحف الوطني فى بغداد . اما فى لوحة (تل الزعتر) التي رسمها عام ١٩٧٦ فقد جسد فيها مأساة الشعب الفلسطيني ، اما في لوحة الطريق الى الجلجلة او حامل الصليب عام ١٩٧٩ فقد جسد فيها ماساة الشعبين اللبناني والفلسطيني .

الفن بهذه الطريقة استطاع ان يقول كلمتة بإنهاض الوضع السياسي .

شخصية محمود صبري الوطنية نالت اعجاباً كبيرا من قبل سلام عادل الذي منحه بدورة الثقة والأمانة السياسية لدرجة ان كثير من اللقاءات مع مختلف الشخصيات الوطنية اقيمت فى بيت محمود صبري . توطدت وتعمقت علاقة سلام عالية ، ولذلك فهو يعتبر اللحظات القليلة التي قضاها مع محمود صبري من اللحظات النادرة والسعيدة فى حياته .

انا واثقة بان الزمن سينسى كثيراً من الاسماء في الحركة السياسية ولكن اسم محمود صبري سيبقى خالدا باعتباره فنانا كبيرا ومسجلا لنضال حركتنا الوطنية في مختلف منعطفاتها .

ثمينة عادل

قد يختلف الناس والنقاد على الاخص فى تقييم اعمال محمود صبرى وخاصة تجربته الاخيرة في مجال واقعية الكم، لكن الجميع يتفق بشكل تام على ان محمود صبري يشكل احد الاعمدة التراثية الاساسية التى يعيش فيها الرسام ويتجاوز القيمة المتحفية الى قيمة التفاعل والاستمرارية فى حياة الشعب العراقي والفنانين التشكيليين والوعي بشكل عام . الوعي الشكيلي العراقي. كما ان رسوماته كانت وستبقى نقطة ينتبه اليها اغلب العاملين في هذا الحقل.

نحن نرى ان محمود صبري في لوحاته القديمة فى المرحلة الاولى من حياته ولعلها تمتد ليس بوجه الدقة من الخمسينيات تتسم بواقعية تخص محمود صبري نفسه وتتحرك ضمن واقعية عامة الا انها واقعية لها نكهة وطعم خاصان بمحمود صبري نفسه.

نحن نرى بحوثه التطبيقية ادت الى بلورة متوازية مع البلورة التي احدثها جواد سليم فى موضوعات عديدة منها تركيبة الشخصية العراقية ، الميراث، الخواص، السمات التاريخية للعراقي من حضوره الماضي الى امتداده في عمق التاريخ، نجد ان الشخصية العراقية عند محمود صبري في واقعيته القديمة متكافئة مع الشخصية التي رسمها جواد سليم الا انها تختلف في كونها ينعكس عليها التوتر، بينما الشخصية عند جواد سليم مسترخية، شخصية منشرحة على الاغلب، شخصية مرتاحة، لكن الشخصية العراقية التي يرسمها محمود صبري هي شخصية مليئة بالتوتر، وهذا التوتر بالحقيقة يمكن ان تسمية توترا اجتماعيا لان الشخصية تخوض صراع عالي المستوى، تخوض صراعاً مع نفسها ومع المجتمع الذي تعيش فيه. فهي بذلك تحمل رسالة وتبدل مجهوداً وطاقة، وهذا المجهود وهذه الطاقة تتشكل على مستوى مشاعر متعددة ومتباينة ونشعر انها شخصيات استثنائية، شخصيات سامية، تغلبها الشفافية وطابع الشعر، وهي من الناحية الشكلية تقريبا لها استقرار فني اصيل ممكن ملاحظته فى جميع الاعمال التي تعرض لها محمود صبري سواء بالنسبة الى شخصيات الرجال او النساء او الاطفال ومن مختلف الاعمال اثناء نشاط الانسان واثناء اصلاحه الاجتماعي او السياسي الذي قد يجد له في بعض الأحيان طابعاً سياسياً حاداً ومباشراً.

المرحلة الثانية من حياة محمود صبري هي في رايي اخطر بكثير هي مرحلة واقعية الكم. وهنا ينشا الجدل وتنشا مغامرة جديدة ليست مضمونة الى محمود صبري، لكن محمود صبري يراهن عليها بكل ما يمتلك من يقين، لان المراهنات تعقد على المصادفات لكن محمود صبري يراهن هنا بكل وعيه ويقينه، ويدخل هذه المغامرة بصرف النظر عن المحصول الفني الذي تراكم اثناء عمله الفني.

صادق الصائغ

تعرفت على محمود صبري كفنان قبل ان اتعرف علية كانسان وكنت من ضمن الذين شاهدوا معرض الرواد الذي احدث ضجة فنية كبيرة وقتها، كان دلك عام ...,١٩٥٠ وقد صادف في الوقت نفسه اني كنت ابحث عن رسام مبدع ليصمم غلافا لكتابي الاول "حصيد الراحة" فزرت محمود صبري في مكان عملة مصرف الرافدين، وفعلا لقد لبى رغبتي ورسم صورة رائعة وهى فى الحقيقة طبق الاصل او مستوحات بصدق من قصص الكتاب.

بعد ذلك تطورت وتوثقت بيننا العلاقة واشتركنا فى اجتماعات عديدة ناقشنا فيها مختلف المواضيع الفنية والاجتماعية وما الى ذلك من مواضيع ذات الاهتمام المشترك. الحقيقة ان اللقاء مع محمود صبري ممتع جدا ومتعدد الجوانب وفى عام ١٩٥١ كان لنا لقاء عمل اخر مشترك حيث اخرج غلاف كتابي الثاني "مولود اخر". وهكذا كان محمود صبري مبدعا فى جميع اعماله ولا اريد ان انسى ذكر عمله فى روايتي "خمسة اصوات" حيث وفق في ابراز خمسة وجوه للمثقفين وربما يكون محمود صبري واحدا منهم.

غائب طعمة فرمان

عادل اكثر مع محمود صبري فى بداية الستينيات خلال الاشهر القليلة التى قضاها سلام عادل فى موسكو عندما كان محمود صبري فى دورة تطبيقية لدراسة الفن التشكيلي هناك . سمعت سلام عادل ذات مرة يقول ... لو لم تسنح لى الفرصة لقيادة الحزب لاصبحت مخرجا سينمائيا ، ان لسلام عادل اهتمامات فنية واسعة وهذا ما قربهما اكثر من بعض وجعل علاقتهما اكثر حميمية . سلام عادل لم يعش حياته الخاصة بقدر ما كرس كل وقته الى النضال السياسي اليومي بمسؤولية وطنية في التراث الوطني العراقي والعربي.

هو مؤسس ورائد ويرتبط اسمه وثيق الصلة باسم اخر هو جواد سليم. وابداع محمود صبري فى الفن التشكيلي العراقي له تاريخ طويل وممتد ويشمل حقلين أساسيين: حقل النظرية وحقل التطبيق أيضا أي الحقل التشكيلي نفسه.

محمود من اوائل الفنانين العرب الذين كتبوا بعمق فى حقل النظرية وأسسوا فى العراق والبلدان العربية الوعي التشكيلي المؤثر الذي استطاع فيما بعد ان يؤثر ليس على جيله فقط وانما ان يكون بمثابة رسالة مهمة لها ابعاد تتجاوز المرحلة